الشيخ محمد عبده

(هذا عنوان الفصل السابع من تقرير اللورد كرومر عن مصر والسودان لسنة ١٩٠٥ قال)

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر اريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضيا في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فاصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة عينة تتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع مابه من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالاً على نفع عمله الفتوى التي افتاها في ماذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم باباً به يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير ان يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء (١)

أما الفئة التي ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ الجليل السيد

(١) قد علم قراء المنار من قبل أنه لما قال الاستاذ الامام بذلك جمع الامير طائفة من علماء المذاهب عنده فنظروا واتفقوا على الطريقة وكتبوا ما قدمه الامير للحكومة وهي عرضته على المفتي وعملت بما أقره

أحد الشهير الذي انشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاما، والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير ان يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني. فعملهم شاق وقضاؤه عسير لانهم يستهدفون دائما لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخلص بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

اما مريدو الشيخ محمد عبده واتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة الملية بمنزلة الجيرونديست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتنطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم، والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة. فهم وسط بين طرفين وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين غير أن معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله ما يكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ما اذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا. وعسى الهيئة الاجتماعية ان تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في ان السبيل القويم الذي ارشد اليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير

منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين

ولعلهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قولا لرجل من أهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفا والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة

بعد ماوصف السيد محمود قلة اهتمام المسلمين في الهند بتعلم العلوم منذ أربعين أوخمسين سنة قال «وكان هؤلاء السادة المسلمون مستائين من قلة تقدم المسلمين في تعلم العلوم العالية غير انهم كانوا مستائين من أنفسهم أيضا ومتحسرين على العلوم التي أهملوا تعلمها . ولكنهم لم يكونوا ممن يكتفي بالتشكي والتذمر ويقتصر على اللوم والتعنيف بل انهم لما علموا علة الشر وأصل البلوى عقدوا النية على اكتشاف علاجها أيضا فأنشأوا جمعية شيخها السيد أحمد خان الذي قضى العمر مجاهدا في سبيل تهذيب العقول بالعلوم والمعارف وجعلوا غايتها العظمى البحث عن وجوه الاعتراض التي يعترض بها المسلمون على التعليم الذي تعلمه حكومة الهند في مدارسها ومعرفة التعليم الذي يرجون استبداله به . فاتضح لهم ان الرجوع الى أساليب التعليم التي كانت متبعة في الشرق قديما أضحى ضربا من المحال . ورأوا على ما بهم من الاكرام والاحترام لتقاليد السلف والاستعظام لكنوز العلوم والآداب التي توارثوها عن آبائهم ان التعليم الذي يرقي قومهم الى درجة تلائم التمدن المحيط بهم ويردهم الى مقام يشعر فيه بنفوذهم وتأثيرهم انما هو التعليم المبني على الاعتراف بتقدم العلوم الواسع الابواب ، الدقيق الدروس ، المحبب الى المتعلم كل أمر بديع عجيب في علوم البلدان الأخرى وآدابها

وفلسفتها فكانت هذه السنة منهم في العقل والاصالة في الرأي اعظم خطر على مشروعهم في بادىء الامر لانهم لو دعوا جموع المسلمين الى قبول رأيهم المبني على مبادىء لاتخالف الدين الاسلامي بالذات بل تخالف التفاسير التي يفسره بها أكثر المتدينين به لاستفزت الدعوة جموع المسلمين الى المعارضة واقامت على الجمعية القيامة . وكانت الجمعية تعلم ذلك وتصبر عليه لانتظارها الفوز في النهاية فبقيت مدة وليس من يؤيدها عن طيب نفس حتى ضعفت المعارضة شيئا فشيئا امام شجاعة المصلحين وثباتهم ثم أيدهم رجال خطير و الشأن مثل المرحوم السر سلار جنك تأييدا ماديا من جهة ومعنويا من أخرى في اعتبار الدين يعدون الاسم العظيم ضمانا عظيما . وكان أعضاء هذه الجمعية متخلقين بأخلاق تجلهم وتنزههم عن كل غاية شخصية فزالت الأوهام بعد ادراك حقيقة بدعتهم الرهيبة وانقلب بعض الذين كانوا ألد خصومهم الى أشد الأنصار غيرة عليهم . وقد مضى ثلاثة عشر عاما (١) على اجتماع الجمعية لوضع مشروعها وظني أن الذين كانوا أقوى أعضائها آمالا في نجاح مسعاها لم يكونوا يتصورون انها تنجح النجاح السريع الذي عاشوا حتى شاهدوه» انتهى اه

أقول في تلك المدرسة الآن ٧٠٠ طالب ولو كانت تسع غيرهم لكان فيها أكثر منهم ومعظم الذين فيها من الهند ومنهم طلبة من بلاد الصومال وفارس وبلوخستان و بلاد العرب وأوغندة وموريتيوس ومستعمرة الرأس ويقيني انه لو قصدها الطلاب من مصر لاستقبلوا فيها بالسرور والبشاشة وأنزلوا على الرحب والسعة

(١) هذا كتب منذ اعوام

(وقال في آخر الفصل الذي تكلم فيه على المحاكم الشرعية (ص ١٣٢) ما نصه:

« هذا وإني أوافق السر ملكوم مكاريث على ما قاله عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد أشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فأبسط الرجاء أيضا ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لا يخورعزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته» اه

أما ما أشار اليه من كلام السر ملكوم مكاريث المستشار القضائي في تقريره عن المحاكم فها هو بنصه

ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وان أبدي شديد اسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق بالشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيرا للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيرا ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها. وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيرا من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة وغايتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظرا لسمو مداركه وسعة اطلاعه

وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد ان تكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فانه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته

فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده اه كلام المستشار

العبرة في كلام اللورد كرومر

من تأمل كلام اللورد في هذا الفصل وتلك الشذرة استفاد منه ضروبا من العبرة والحكم تدل على ان هذا الرجل الاجنبي الكبير قد علم من شؤون المسلمين — وهو أجنبي — ما لم يعلمه الرؤساء من علمائهم وأمرائهم ، فضلا عن أوساطهم ودهمائهم ، فرأينا أن نبين ذلك مع شيء من الشرح والرأي

العبرة الاولى بيانه لحال المسلمين

ذلك انه قسم المسلمين الى ثلاثة اقسام — (الاول) المتعلمون المحافظون على كل قديم جروا عليه وهم السواد الأعظم ونقول انه قد بلغ من تعلمهم في جمودهم على ما ألفوا أن كان من أشد الصعوبات التي لاقتها الدولة العلية في سبيل التعليم العسكري في طرابلس الغرب محافظة الأهالي على زيهم المعروف وحسبانه من أمور الدين وإن أهل مراكش لأشد تعلما وجمودا على ذلك ولا يخفى على من شاهدوا حركات العساكر في الحرب أو في التعليم أن لبس البرنس والرداء المعروف بالحرام من عوائق خفة الحركة وموانع اتقان كثير من الأعمال التي تتوقف عليها البراعة العسكرية . ولا يختلف عاقلان في كون البراعة في الأعمال العسكرية ومن أهمها خفة الحركات والنظام في النقل والانتقال هي أعظم أسباب الفوز والظفر . فهذه

عادة ليست مما توجبها عقائد الدين ولا عباداته ولا فضائله وآدابه قد صارت عقبة كؤدا في طريق رقي المسلمين ، وعزة الاسلام وحماية الدين ، فما بالك بغيرها من العادات ، التي تقوم على إلحاقها بالدين بعض الشبهات ، وهذا القسم من المسلمين تابع في صلاحه وفساده لشيوخ العلم الديني وشيوخ الطريق الذين ينتمون إلى الصوفية فهؤلا يصلح الا اذا صلحوا وأصلحوا أوزال اعتقاده بزعامتهم الدينية وقيض له بعد ذلك مصلحون آخرون .

(القسم الثاني) المتفرنجون الذين ليس لهم من الاسلام الا اسمه ولله درّه ما أدق فكره اذ عرف أنهم مارقون من الدين ساقطون من نظر الاعتبار لا قيمة لهم في أنفسهم ، ولا صوت لهم في أمتهم ، وسنعود الى ذكر ذلك

(القسم الثالث) المصلحون الذين يريدون إصلاح حال المسلمين الاجتماعية مع المحافظة على الدين لعلمهم ان كل فساد طرأ عليهم فمنعهم عن مجاراة الامم في أسباب العزة والقوة انما هو من العادات والبدع لا من جوهر الدين .

وقد ادرك اللورد بصائب فكره ان هذا القسم هو الوسط الذي يرجى خيره بين المتنطعين في جمودهم والمتهتكين في تفرنجهم . قال ان هذا الحزب معروف في الهند أكثر مما هو معروف في مصر وان منه السيد أحمد خان مؤسس مدرسة عليكده الكلية منذ ثلاثين عاما . ونقول ان الزمن الذي قام فيه أحمد خان بعمله هذا هو الزمن الذي كان السيد جمال الدين الافغاني يبذر فيه بذور الاصلاح في مصر بمساعدة الشيخ محمد عبده الذي تلقى عنه وتخرج على يديه (وترى في هذا الجزء مقالتين من المقالات الاصلاحية التي تلقاها عنه ونشرها في جريدة مصر التي كانت أنشئت بارشاده) وكان السيد جمال الدين فيما نظن أقدر من السيد أحمد خان على الاصلاح لولا أنه فتن بالسياسة فحالت دون إتمام عمله في مصر ولم تمكنه من عمل يذكر في غيرها سوى ما كان يكتبه في أوربا من المقالات الموقظة . لذلك كان الاستاذ الإمام جازما بأن مسالة السياسة واتقاءها شرط للتمكن من الاصلاح كما بيناه في ترجمته . وغرضنا من هذه الكلمات بيان أن مسلمي الهند لم يسبقوا مسلمي مصر الى الاشتغال بالاصلاح وانما فاقوهم بمدرسة العلوم الكلية التي اسسها أحمد خان وقد عزم الاستاذ

الامام أن يؤسس في مصر مدرسة خيرا منها لكن المنية عاجلته قبل ذلك فقدمات قبل وقته كما قال اللورد وقال كل عاقل عرفه

وليعلم مسلمو مصر أن مدرسة العلوم في عليكده لم تنجح الا لأن مؤسسيها كانوا من عهد زعيمهم السيد أحمد خان الى الآن على وفاق مع السلطة الانكليزية وتحسين الظن بها فكانوا خيرا لملتهم ممن جعلهم سوء الظن والكره بين معاد لعلوم الافرنج النافعة وبين خائف من كل عمل نافع لملته، وأن الاستاذ الامام كان على هذا الرأي أي انه لا بد لنا من العمل النافع للاسلام والمسلمين مع تحسين الظن بأن الانكليز لا يعارضوننا في ذلك ولا يمنعوننا مما ينفعنا الا اذا أدخلنا فيه السياسة وقصدنا مضارتهم ومقاومتهم وحينئذ نكون أضر على أنفسنا وأنفع لهم كما هي سنة الله تعالى في كل جاهل ضعيف يقاوم عالما قويا . وسأوضح هذه المسألة في موضع آخر

اما ما أشار اليه اللورد من معارضة المسلمين للسيد أحمد خان وحزبه فلا يتوقع نظيره من مسلمي مصر فان أولئك كانوا يعادون جميع العلوم التي يصفونها بالجديدة أو بالأوربية ويعدونها آفة الدين والمصريون ليسوا كذلك وانما كان المتطعون من أهل الجمود يخافون الاستاذ الامام على الدين من جهة تعليمه للدين اذ كانوا يظنون انه ينصر مذهب الفلاسفة أو المعتزلة على مذهب أهل السنة فلما قرأ العقائد والتفسير في الأزهر زال ذلك الظن بمبادي السنين وعلم أهل الأزهر كافة أنه ينصر مذهب السلف على كل مذهب يخالفه ولا يقدم على ما نطق به الكتاب ومضت به السنة النبوية قولا لقائل . فانحصرت بعد ذلك معارضة الاصلاح الذي كان يحاوله فيمن يعرف اللورد وغيره من أهل البصيرة أنهم انما يعارضونه لاسباب شخصية بل صرح اللورد بذلك . لهذا كان كل شيء يخترعونه للطعن فيه يكون سببا لزيادة عرفان الناس بفضله حتى ان السواد الاعظم من الأمة المصرية صار معه في أواخر مدته . ولا ينافي هذا قول اللوردان مريدي الشيخ واتباعه الصادقين قليلون فانه يعني بهذا الصادقين في طلب الاصلاح والعارفين بطرقه وهم قليلون بالطبع ولكن الذين يوافقونهم ويحسنون الظن في طريقتهم كثيرون جدا بل هم الاكثرون فعسى أن يوفقهم الله لمضي في العمل الذي كان إمامهم متوجها اليه وعند ذلك يظهر

صدق قولنا لاسيما اذا علم الناس ان الحكومة وما وراءها من القوة راضية أو غير ساخطة على عملهم

بلغ من مقاومة السيد أحمد خان ان كان يطعن فيه على المنابر واستفتى بعض علماء الحرمين في أمره فأفتوا بكفره ولم تبلغ مناهضة الاستاذ الامام في شدتها هذا المبلغ . ذلك بأنه كان أقدر على الاحتجاج بالدين لما يدعو اليه وأبعد من السيد أحمد خان عن الشذوذ وان مناهضيه أقل غباوة واضعف ارادة والأمة انبه منهم وأقرب الى قبول الاصلاح من أهل الهند

العبرة الثانية ثناؤه على الامام

صفوة العبرة الاولى ان اللورد عارف من أحوال المسلمين مالا يعرفه أمراؤهم وعلماؤهم فيعتد بقوله فيهم . واما العبرة الثانية فنريد بها ما في ثنائه على الرجل وحزبه من الانصاف وعرفان الفضل لأهله وما في تنشيطه لهذا الحزب من قصد الخير وقد زاد هذا الثناء قيمة صدوره بعد نشر كتاب (مصر الحديثة) الذي وضعه كاتب افرنجي اسمه (غورفيل) وطبعه باللغتين الانكليزية والفرنسية وقد اشتهر الكتاب بفصل فيه معرة الى فقيدنا المرحوم فيه انتقاد شديد على الحكومة المصرية والمحتلين الذين يديرون أمرها و يديرون دفتها وقد ترجمته أكثر الجرائد العربية اليومية ولكن الرجال العظام تبني أحكامها على الصفات والأعمال ، لا يصدها عن مقاصدها قيل وقال ، واللورد ونظار الحكومة ومستشاروها قد تعودوا من فقيدنا المرحوم قول الحق الذي يعتقده في كل ما يخاطبهم به خطابا رسميا أو غير رسمي وناهيك بتقريره عن المحاكم الشرعية وبمناقشته لناظر المعارف في مجلس الشورى في انتقاد التعليم بمدارس الحكومة . وقد كان اللورد العظيم يصغ آراءه غير الرسمية موضع الاعتبار كرأيه في ضرر إلغاء النيابة العمومية وكانت الحكومة قد عزمت على ذلك وكادت تنفذه فرجعت عنه

فهل يعتبر بهذا رجالنا الذين يمنعهم الجبن ان يقولوا لكبراء المحتلين ما يعتقدون في المصالح والأعمال ؟ ألا يكفيهم ثناء اللورد والمستشار القضائي على الاستاذ الامام بما أثنيا به بعد موته واحترامهما وسائر كبراء المحتلين له في حياته برهانا على أن القوم رجال جد يجلون من يقول الحق في السر والجهر و يعمل بالاخلاص

في الخفية والعلن سواء وافق رأيهم أو خالفه مالم يكن حربا لهم، وأنه لا قيمة لأهل الدهان والرياء في أنفسهم وحسبنا هذا الايجاز في هذا المقام

هذا وليعلم الذين يقولون ان اللورد لم يكتب في الرجل أكثر مما يجب أو ينتظر أولم يوفه حقه ان تقرير اللورد ليس تاريخا لمصر ولا كتابا في مناقب العلماء والحكماء وإنما هو تقرير رسمي عن مالية مصر والسودان وإدارتهما وحالتهما العمومية فالذي ينتظر ان يقال فيه عن مفتي الديار المصرية انه رجل جليل مصلح قد قام بأعماله في الحكومة خير قيام، أو ما في معنى هذا الكلام، ولكن اللورد قد زاد على ذلك ما رأيت في الكلام عن حزب الرجل وتفضيله على سائر المسلمين وتنشيطه وحثه على ترقية المقاصد التي كان يرمي اليها إمامه

وإني رأيت صديقي الاستاذ الامام شاكرين للورد ما كتبه قادرين اياه قدره راجين ان يصدق عليهم ظنه الحسن

العبرة الثالثة حثه الاوربيين على تنشيط هذا الحزب

أني لأعلم ان من الناس من يعجب لقول اللورد « فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الاوربيين » و بعضهم يضعه موضع الظنة لاعتقاد المسلمين أن الاوربيين أعداء لهم لا يريدون لهم اصلاحا ولا خيرا مما وانما يريدون الخير لقومهم خاصة فكيف يحث اللورد أهل أوربا كافة على تنشيط حزب مصلح ينفع المسلمين بل لا ينفعهم غيره كما قال والجواب عن هذا الاشكال لا يفهمه الا من عرف كنه الفتح أو الاستعمار الاوربي وقد سبق لنا فيه قول ونقول هنا كلمة وجيزة فيه .

ان غرض الاوربيين من كل بلاد يدخلونها بالفتح أو باسم الحماية أو الاحتلال الموقت أو غير ذلك من الاسماء هو الكسب ولا ينمو الكسب الا بالعمران فهم يحبون عمران البلاد التي يتبوؤنها ومن ثم سموا ذلك استعمارا، وعمران كل بلاد انما ينمو و يعظم على قدر اتفاق أهلها مع المستعمرين عليه وهذا الاتفاق يتوقف على أمور أولها في المرتبة معرفة كل من الفريقين الآخر ليكون في وفاقه وخلافه على بصيرة ومن كان أعلم بالآخر كان أحدر بالفوز عند التنازع مع تساوي القوة

فكيف اذا كان الأعلم هو الأقوى. ولكن الأوربيين لا يحبون ان ينازعوا ويقاوموا وان كانوا واثقين بالظفر لان ذلك يقلل من كسبهم. ومتى قبضوا على ناصية السلطة في بلاد أمنوا من مقاومتها بالقوة وانحصر حذرهم في مقاومة الأمة لهم بالفتن فان كل عمل يراد في البلاد يعسر تنفيذه اذا كان سواد العامة مقاوما له فاذا كان هذا السواد بحيث يخشى خروجه على السلطة كانت موارد الكسب على خطر

ثم ان الاوربيين يرون أن أعظم مثار للفتن التي ربما تفضي الى الخطر على موارد كسبهم الذي يطلبونه بنشر مدنيتهم وباستعمارهم للأرض هو ما عليه عوام المسلمين من الاستعداد للتهيج باسم الدين وربما هيجة شوهى يقوم بها بعض الدجالين الذين تعتقد العامة صلاحهم أو بعض زعماء السياسة تذهب بعمل سنين طويلة — لهذا كله كان من مصلحة الأوربيين في بلاد المشرق ان يوجد حزب نير الفكر محب للاصلاح الذي يعرّف العامة بقدر أنفسهم و بنسبتهم الى الاجانب الذين يعيشون معهم و يزلزل التعصب الاعمى في نفوسهم حتى لا يغرهم الغارون ويدعوهم الى أعمال إن أضرت بالاجانب قليلا فهي تضربهم كثيرا. فالاجانب العقلاء العارفون بكنه الشرق كاللورد كرومر واضرابه من ساسة الانكليز يحبون هذا النوع من الاصلاح الذي ينفع المسلمين لانه ينفعهم هم أيضا لأنهم يحبون ان يكسبوا بهدو وطمأنينة كما قال المنار غير مرة ولكن قلما يذهب بهم الميل الى السعي في ايجاده أو الحث عليه لان مصلحتهم قائمة بدونه، قائمة بقوة العلم والحكمة، وقوة السلاح والوحدة، فاذا وجد فيهم من يحث عليه كانت السياسة منه تابعة للفضيلة الشخصية وما أجدر اللورد كرومر بذلك

مثل هذا الاصلاح لا يأتي من جانب المتفرنجين لانهم لا قيمة لهم في نفوس السواد الأعظم لبعدهم عن الدين فلا بد من حزب وسط بين العامة و بين المتفرنجين يكون له جانب الى النظام والمدنية وجانب الى الدين النقي السالم من الخرافات التي هي مثار الفتن والآفات. ولا شك ان الحزب الذي كان يرأسه الاستاذ الامام لا غرض له الا إزالة البدع والأوهام التي ألصقت بالدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا. ومن أركان الاصلاح الذي يرمي اليه أخذ كل ما ينفعنا ولا يعارض ديننا من علوم أوربا ومدنيتها. اما العلوم الحقيقية فلا شيء منها يخالف الدين

الحق وأما أعمال المدنية فمنها النافع لنا كالجمعيات الخيرية والعلمية والدينية والأدبية والشركات المشروعة ومنها الضار كالخمر والميسر والفجور. و يعتقد هذا الحزب أنه لا يمكن لنا القيام بهذا الاصلاح الا بالقاء السياسة فيه واجتناب مقاومة السلطة به ويجعل مداره على تربية النفوس بالدين وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لاهلها . ذلك أن سياسة هذه البلاد هي عبارة عن مسألة الاحتلال وقد سألت الاستاذ الامام عن رأيه فيه عند مازار طرابلس منذ بضع عشرة سنة فقال انها مسألة أوربية لا شأن لنا فيها وانما الشأن فيها للدول أوربا ذات المصالح في مصر مع السلطان فاذا اتفقت هذه الدول على الجلاء كان ، وهو ما لا دليل عليه الآن ، هذا رأي إمامنا رحمه الله في المسألة المصرية وقد قالت أوربا كلمتها فيها بلسان اتفاق ابريل سنة ١٩٠٤ فلماذا لا نشتغل بما يعنينا وهو في استطاعتنا من ترقية أمتنا بالتربية والتعليم ونترك ما لا طاقة لنا به ولا يأتي منه الا الضرر وأقل هذا الضرر تحويل قلوب الامة عما فيه خيرها وفلاحها في دينها ودنياها وضغط أوربا عليها

هنا يقول المعترض سلمنا أن طريقة هذا الحزب هي المثلى في إصلاح حال المسلمين ، وان منتهى الحكمة فيها مسالمة الاوربيين ، لكن مثل اللورد كرومر في بعد نظره وثاقب رأيه لا يعزب عنه ان المسلمين اذا ساروا على هذه الطريقة ارتقوا ارتقاء حقيقيا يحول دون دوام السلطة الانكليزية فيهم فكيف يركب هذا الصعب ، أو يكون حاديا لهذا الركب هذا الحزب ، والجواب عن هذا سهل وهو ان طريقة هذا الحزب الجامعة بين القائدتين في الحال قد تكون جامعة بينهما في الاستقبال ، فان الامة اذا سارت في طريق الترقي مع المسالمة وحسن التفاهم بينها وبين هؤلاء القوم ولقيت منهم التنشيط والمساعدة على رقيها في ابان ضعفها وعجزها فهي لا تترك صداقتهم في طور قوتها وهم لا يتركون صداقتها و يمكنهم ان يربحوا منها في طور القوة والاستقلال أكثر مما يربحون في طور الضعف والاختلال والانكليز هم القوم الذين لا يماندون الطبيعة وانما يسايرونها و يستفيدون من كل طور من أطوارها بحسبه . ولولي لا أكون واهما اذا قلت ان فرنسا لو وجدت في الجزائر حزبا يعمل لترقية شأن المسلمين ، مع التوفيق بين مصالحهم ومصالح

الفرنسيين ، لأ باحت له العمل ان لم تنشطه وتساعده . على أن الانكليز لم يساعدوا طلاب الاصلاح في مصر كما أنهم لم يقاوموهم . وما كتبه اللورد في تقريره الاخير هو أول قول رسمي سمعناه منه يدلنا على ميله الى هذا الاصلاح فأحببنا ان نزيل ارتياب المرتابين فيه لأن سوء ظننا بالقوم يضرنا ولا يضرهم ومن النباوة أن يظن أن القوي يصانع الضعيف وان مثل اللورد كرومر يكتب مثل هذه الكتابة لدولته ، ويرمي فيها عن غير قوس عقيدته ، وهو يعلم أن أوربا كلها تحمل آراءه محل الاعتبار ، لاسيما ما كان منها أثر التجربة والاختبار ، وقد سمعنا عنه منذ سنين انه قال لبعض الكبراء وقد رغب اليه في عمل ينفع المسلمين ويرقيهم ان من لا يعمل لنفسه لا يعمل له أحد فاعملوا ونحن نساعدكم أو قال وحسبكم ان لا نعارضكم . فقال الراغب انه ليس عندنا رجال يهتمون بالخدمة العامة فقال اللورد بل عندكم رجلان الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدوهما بالمال وهما يعملان للمسلمين ما يرقيهم ويرفع شأنهم

العبرة الرابعة رأيه في المتفرنجين

يظن هؤلاء المتفرنجون أن لهم مكانة عالية في نفوس الأوربيين لتشبههم بهم في عاداتهم وتزلفهم اليهم واغراغ أموال البلاد في أكياسهم وقد علم مما ذكرنا عن اللورد أنه لا يقيم لهم وزنا وقد علمنا مثل هذا بل ما هو شر منه عن كثير من كبراء الاوربيين — علمنا انهم يحتقرون هؤلاء المتفرنجين وفي ذلك من العبرة ما لا محل لشرحه في هذا المقام وللبيب من تكفيه الاشارة وأين اللبيب منهم وقد أفسدت الخمور ألبابهم ، وأضاع القمار صوابهم ، فمسرهم في حسرة على المال الذي يمتع شهوته ، وموسرهم في حيرة لا يدري كيف يفني ثروته ، ومنتهى الفخر عندهم كلب غريب يساير في الطرقات ، ونوع جديد من المركبات ، وفتاة أوربية تخاسر في المتنزهات ، و تقبيح ما عليه قومهم من الآداب والعادات ، وصرف العمر في التفنن في اللذات ، وان أذاقت الامة ضعف الحياة وضعف الممات ،